الصفعة

الندم ليس عيبًا بل دليل قاطع
على أنك شخص لديه ضمير

المكان: قاعدة الإمام علي الجوية في الناصرية.
الزمن: سنة ١٩٩١ بعد انتهاء حرب الخليج الثانية.
الوقت: السابعة مساءً.
الموقع: دور سكن الضباط.
رتبتي العسكرية آنذاك : مقدم مهندس.
المنصب: قائد الجناح الهندسي.
قائد القاعدة الجوية : العميد الطيار الركن (ع.ح).

في إحدى الليالي الشتوية المُقمرة الرطبة حيث تقطع غيمات المطر ضياء القمر من وصوله إلى الأرض للحظات، تاركة إياها تحت رحمة سيف الظلام، قبيل منتصف الليل بقليل؛ اتصل بي العميد الركن الطيار قائد القاعدة هاتفيًا وطلب مني أن أوافيه بسرعة إلى مقر القاعدة، لم يَزد ولم يُعلمني سبب الاستدعاء.

غيرت ملابس الراحة التي كنت أرتديها في غرفة راحتي، بزيي العسكري المُعتاد على عجل، واتجهت على فوري إلى مقر القاعدة وأنا أحبس أنفاسي لاعتقادي الراسخ بأهمية الموضوع، دخلت المقر أديت التحية العسكرية للقائد، بجدية بالغة طلب مني الجلوس، وفورًا أصدر لي أمر عسكري مباشر وصريح أن أتولى قيادة القاعدة في حالات عدم تواجده لأي سبب كان، وأن أباشر عملي في مقر القاعدة، رغم وجود ضابط آخر أقدم مني، وكان برتبة عقيد ويشغل

منصب قائد الجناح الإداري للقاعدة، أصابتني الدهشة وهو لم يُفاجأ من ردة فعلي، فإذا به يقول لي:

– أخي مقدم عباس أنا أفهم سر دهشتك وتعجبك بوجود العقيد، ولكني أود حين أترك القاعدة أن أكون مرتاح ومُطمئن أن الأمور ستسير كما يجب، وإني على ثقة كبيرة بك، بآداءك وعملك، وأعلمُ جيدًا وفق خبرتي أنك ستؤدي هذه المُهمة بنجاح فائق.

ثم توقف برهة عن الكلام مفسحًا المجال لي...

– شكرًا سيدي على ثقتك بي، ولكن يا سيدي أنت تعلم بوجود عقيد (ع.أ) في القاعدة، وأنا مقدم وهو أعلى رتبة مني، فكيف يستقيم الأمر، لاسيما وأنا في غنى عن أية إشكالات يمكن أن تحدث معه، وهو صديقي أيضًا ولا أرغب بمضايقته.

– مقدم عباس؛ لقد اتخذت قراري وانتهى الموضوع.

– ولكن سيدي القائد هل أبلغت العقيد بقرارك هذا؟

– أنا سأكون في بغداد غدًا، وأنت ستأتي إلى المقر صباح غد وستُدير شؤون القاعدة، وإن سألك العقيد فيمكنك القول إني قد أصدرت لك الأمر وكل شيء سيكون على ما يرام.

– أمرك سيدي سأفعل ذلك ولكن..... أنا في حرجٍ كبير...

– أنا أصدرت الأمر لك وستنفذ...

– نعم سيدي، أمرك مُطاع، شكرًا على ثقتك وسيكون كل شيء على ما يرام، وما عليك إلا أن تكون مطمئنًا مرتاح البال، وأن تقضي إجازتك براحة وسلام، وأن تعود لنا بأمان.

– شكرًا مقدم عباس، وأنا واثق من ذلك، والآن تستطيع الذهاب إلى غرفتك وترتاح، وأعتقد أنك لن تجدني صباح غد.

خرجت من مكتب القائد مندهش ومنشطر إلى قسمين، جانب مني مُغتبط ومزهو بسبب ثقة القائد بي، وجانبي الآخر غير سعيد كون صديقي العقيد قد يعتقد أني خططت لذلك، وقد يتخذ موقف غير مناسب، ولا أريد أن أفقد صداقته كوننا نعيش في ظرف حساس وقلق جدًا، نحتاج أحدنا للآخر.

بين عتمة الليل الحالك وضياء القمر المتقطع سرت على أقدامي ببطء متعمد قاصدًا بهو الضباط، وأنا أتطلع إلى السماء المُرصعة بالنجمات المضيئة التي بدت كحبات ألماس تمَّ تقطيعها بعناية، وتركيبها على أسوارة سوداء، إحداها كانت كبيرة كمنارة البحر تعطي إشعاعات متقطعة، بينما انتصب القمر كحارس أبدي بشموخ ظاهر يرصد بحنان فائق كل ما يجري في الكون في ظل غياب أمنا الشمس، يسعى منح ضيائه جميع زوايا الأرض ويغمرنا بالدفء والاطمئنان، إنه حقًا ليل مثير وعجيب، إنه مصنوع من ومضات لامعة معلقة في كبد السماء البعيدة، هكذا سرت ليلتي بين التوجس والقلق، ولكن ما ذنبي أنا إن خرجت الأمور عن قواعد العرف العسكري، بعد سويعات رحل قائد القاعدة إلى بغداد مُبكرًا وتركني أضرب أخماسي بأسداسي لا أعلم ما الذي سيحدث صباحًا.

صباح رائق والشمس تعلو على سطوة الشتاء، حضرتُ إلى مقر القاعدة، وكملك إفرنجي تربعت على عرش القائد الوفير بزهو وتوجس كبيرين، لم تمر دقائق معدودات إلا ويدخل العقيد قاطعًا عليّ خلوتي وزهوي، بعد أن رأني نهضتُ على الفور، ألقيت عليه تحية الصباح ثم جلسنا على الأريكة الوفيرة التي تقع إلى يسار عرش القائد، جلس بقربي وقال بلهجة مترددة:

– صحيح أنّ القائد قد رحل؟

– نعم سيدي لقد رحل القائد وها نحن هنا.

بهدوء وابتسام أجبته... الجو مُفعم بالتوجس والحذر...

– كيف ستسير الأمور الآن؟

أضاف العقيد وكأنه قد عَلِمَ بالأمر...

خطرت لي فكرة مدهشة سرعان ما تبددت في الكون، إذ لم تتمكن من بلورة نفسها فتركتها تنحدر وتتلاشى في الأفق البعيد، فما كان مني إلا أن أسعى لأوضح له حقيقة الأمر كما هي دون أية مواربة، بهدوء يشوبه القلق قلت:

– يا سيدي العزيز نحن أصدقاء ونعيش ذات الظروف الصعبة في هذا الوقت العصيب، وأعلم جيدًا أنك أعلى رتبة مني، وفي حال غياب القائد يفترض وحسب الضوابط العسكرية ودون أدنى شك أن تتولى القيادة، ولكني سأعلمك بما جرى ليلة البارحة.

حكيت له بالتفصيل ما حصل مع القائد ليلاً، وأخيرًا أوجزته بأني سأقبل أي خيار يتخذه العقيد، على أن يتحمل مسؤولية قراره أمام القائد.

تململ العقيد بصوت غير مفهوم وعَدل من جلسته كأنه أمام قاضي تحقيق شرس في قضية مصيرية، فكر في سِره قليلاً، تأفأف ومن ثم تكلم دون صوت، ولكنه نجح القول أخيرًا بصوتٍ مبحوح أنه سيقبل الوضع على ما هو لأنه لا يرغب بأي مشاكل لا مع القائد ولا مع غيره... هدأت سريرتنا، ارتاح العقيد واطمأنت نفسي وانتهى الأمر على سلام، الشيء بالشيء يُقال سيما وإنه قد حصلت معي مواقف مُشابهه لما جرى هنا في وحدات عسكرية أخرى وسأبينها لاحقًا.

قد يعتقد القارئ الكريم أن ما حصل لا ينسجم وعنوان حكايتنا هذه، وهذا صحيح إذ أن موضوع الصفعة سيأتي الآن...

دخل الجندي السائق – ولا أذكر اسمه – إلى مقر القاعدة في ثاني صباح لي على عرش القاعدة، ألقى التحية العسكرية وطلب الإذن منيَّ للرحيل مع عجلته إلى مركز مدينة الناصرية، لكي يملأ خزانها الكبير بالماء، ومن ثم جلبه للقاعدة لتوزيعه على الخزانات الفرعية لوحدات القاعدة الكثيرة، ومن ضمنها دور

سكن الضباط... أبلغت السائق أن يُسرع بمهمته لكي يقوم بتوزيع ماء الشرب على جميع الوحدات وكذلك خزان دور سكن الضباط ومضى.

سار ذلك اليوم على خير ما يرام لاسيما وأن المقدم ضابط ركن القاعدة كان صديقي ويشاركني غرفة سكني وكذلك مقر القاعدة، كُنا نتشارك العمل نمزح نتناول طعام الغداء سويًا أحيانًا ونتشاور في حل المشاكل أحيان أخرى، وهكذا انتهى يومي وعملي الشاق مساءً، ذهبت مُتعبًا إلى غرفتي كي أستحم لأزيل ما ترسب من قلق وإرهاق في بدني المسكين، ولكي أنعم بدقائق سعادة وانتعاش من خير الماء الحي الجاري.

دخلتُ الحمام أدرتُ قبضة رشاش الماء وأنا في غبطة فائقة، انتظرت لحظة نزول رذاذ الماء على رأسي وجسمي لكي تزول أدران القلق، ولم تنزل، انتظرت فترة أطول ولم يأتِ الماء، اعتقدت بوجود خطب ما في صنبور الماء ففحصته، ولم يكن أي خلل فيه، حاولت مرارًا ولم أفلح في شيء، ذهبت إلى غرفة مجاورة كي أتأكد وكانت النتيجة نفسها – لا يوجد أي ماء في خزان ماء دور سكن الضباط.

غضبت كالشيطان، انتفضت كالملدوغ في فراشه من عقرب خبيث، فارَ الدمُ في عروقي وتوعدت في نفسي هذا السائق عدلاً وقصاصًا، ارتديت ملابسي على عجل وأنا مازلت أمطر غضبًا، رفعت حاكية الهاتف واتصلت بمسؤول مرأب عجلات القاعدة وأمرته بإرسال هذا السائق لي فورًا، وأكدت عليه أني سوف انتظره في واجهة دور الضباط.

بهدوء ودون اكتراث ترجل السائق من عجلتهِ وتقدم نحوي ببطء، توقف وألقى التحية العسكرية وكانت علامات الدهشة تبدو على مَحياه وقال:

– نعم سيدي طلبتني فجئت...

حاولت كَبتْ جِماح غَضَبي قدر ما استطعت، وأمطرته بعدة أسئلة وكان أولها:

– لماذا لم تملأ خزان ماء دور الضباط؟ ألم أبلغك بذلك؟

– نعم سيدي لقد أبلغتني ولم أفعل لأنني بالأصل لم أستطع ملء خزان عجلتي بالماء.

– لماذا وكيف؟ لاسيما وأنت توجهت نحو الناصرية في الصباح الباكر!!

– نعم سيدي لقد كان الدور على ملء العجلات كبيرًا فلم أحصل على ماء.

– وماذا عن مئات الناس في القاعدة، ألم تزودهم بماء الحياة؟

قلتها وبدأ دخان الانفجار يتصاعد من بطني ويضرب في رأسي بسرعة البرق...

– كلا سيدي لم املأ أي من تلك الخزانات...

أضاف والخوف بدأ يلمع في عينيه شعاع أسود...

– وأين كنت طوال هذا اليوم؟ وماذا عملت طول هذه الساعات العديدة خلال النهار؟ ولماذا لم تأتِ لتخبرني أنك لم تُزود الناس في القاعدة بإكسير الحياة؟

– نعم سيدي...

قالها بتلكؤ واضح وسكت وطأطأ رأسه إلى الأرض، ومن ثم قال:

– وماذا أفعل ومن أين آتي بالماء؟

هنا انتهى وقت النقاش العقيم والاستفسار الفارغ والكلام غير المُجدي، وحان وقت الفعل فقلت له:

– هل أنت حيوان! ألا تفهم أن الناس يحتاجون إلى ماء الشرب لكي يستطيعوا الاستمرار في العيش والعمل والاغتسال!!

– نعم سيدي... لم أحصل على ماء بسبب الزحام!

توقفت عندي لغة الكلام، وهنا لم أستطع إمساك أعصابي أكثر فصفعته مرة واحدة على وجهه وقلت له أن يَغرب عن وجهي فورًا، على أن يكون كل

سائقي عجلات الماء حاضرون في التعداد (التجمع) الصباحي لمنتسبي القاعدة غدًا، وانصرف بخذلان بعد أن أذنت له بذلك.

تحدثت مع العديد من الجنود في وحدات مختلفة في القاعدة حول موضوع تزويدهم بالماء فأعربوا عن استيائهم الشديد من شحة ماء الشرب على الدوام، هاتفت المسؤول في مكان ملء ماء الشرب وعَلِمتُ أن السائق كان قد ملأ خزان عجلته بالماء ومضى وليس كما ادعى هو، وكذلك عَرفت أنه يقوم ببيع ماء شرب جنود القاعدة على المواطنين المدنيين في مدينة الناصرية ليكسب المال، ولذلك قررت أن تكون عقوبته علانية قاسية وأمام الجميع.

صباح اليوم التالي وقفت حازمًا أمام جميع مُنتسبي القاعدة ضباط ومراتب وجنود وبعد اكتمال مراسيم الإحصاء أمرتُ رئيس عرفاء القاعدة أن يُحضر كرسي ويضعه أمام المنتسبين، على أن ينتصب حلاق القاعدة خلفه ويكون جاهز لعمله العلني فورًا، فكان لي ذلك، وأصدرتُ أمر آخر:

– على جميع سائقي عجلات ماء الشرب أن يتقدموا إلى الأمام...

ففعلوا...

– أين هذا السائق الذي لم يسق منتسبي القاعدة بماء الشرب يوم أمس وذهب ليبيعه في المدينة...

قلتها بصوتٍ جهوري كي يسمع الجميع، فتقدم هو مُطأطئ رأسه نحو الأسفل...

– اجلس على الكرسي أيها السائق.

قلتها بحزمٍ قاطع فجلس، أمرت الحلاق ألا يبقي أي أثر لشعر رأس السائق، ففعل بسرعة وإتقان، فزدتُ بصوتٍ شديدٍ ثابت:

– على السائقين الآخرين الجلوس على الكرسي ذاته كي يأخذوا دورهم في حلاقة رؤوسهم حتى لا يُكرِّروا ما فعل رفيقهم...

ففعلوا جميعًا وطارت شعورهم بسرعة البرق، وكأن الحلاق كان في شوق عظيم لذلك... وقلت بصوت عالٍ وحاسم:

– إن من لا يحترم عمله ولا يُراعي حاجة الناس، ويستهتر بقوتهم من ماء وطعام أو أي شيء آخر سيكون مصيره هذا وقد يكون أقسى، على جميع السائقين الحضور إلى مقر القاعدة يوميًا مُبكرًا، وكذلك عليهم تثبيت أوقات ذهابهم وإيابهم من وإلى القاعدة، على أن يجلب كل واحد منهم الماء للقاعدة مرتين يوميًا وتوزيعه على جميع نقاط القاعدة، وبالأخص البعيدة منها... هل هذا مفهوم؟

فأجاب جميع السائقون بنعم سيدي، وانصرف الجميع إلى أعمالهم بينما تجمع سائقوا عجلات الماء الذين بدت جلدات رؤوسهم طرية وناعمة أمام مقر القاعدة لتثبيت حضورهم.

وهكذا أخذ السائقون حليقي الرأس بتزويد منتسبي القاعد بماء الشرب يوميًا بشكل مستمر ومنتظم، ولقد فرح جميع جنود القاعدة وتنفسوا الصعداء، إلا ضميري الذي عذبني كثيرًا ولا يزال، بسبب الصفعة التي وجهتها للسائق المُحتال رغم ارتكابه لجريمة لا تغتفر.

فعلتها مرة واحدة في حياتي ندمت وما أزال نادمًا على ما فعلت، وتمنيت لو أنني لم أصفع هذا السائق واكتفيت بنهره وإزالة شعره، أو حتى إلى إلقاءه في السجن، رغم أنه كان قد استحقها بجدارة فائقة، لكن الذي حدث قد حدث ولم يعد بالإمكان إعادة عقارب الزمن إلى الوراء، رغم أن ما فعلت عدا الصفعة كان قانونيًا وعادلاً وقد نال رضى الجنود والقائد على السواء.

عاد قائد القاعدة بعد أيام من إجازته وتولى شؤون القاعدة بعد أن أوجزته بكل ما جرى خلال فترة غيابه، أثنى عليّ كثيرًا، لم يُعقب على هذه الحادثة بحرف واحد واكتفى بالغمز مع إطلاق ابتسامة عريضة لي، دلالة على رضاه الكامل وقناعته بما حدث وتحقق.

لا بد من الإشارة إلى أني تعرضت أثناء خدمتي في الجيش إلى حالات مشابهة، وأعني عند توليتي على مقاليد وحدة عسكرية بوجود ضابط أو ضباط أرفع مني رتبة فيها.

أذكر قبيل حرب الكويت بعدة أشهر، تمَّ إرسالي بعد أن كنت برتبة عقيد وأشغل منصب قائد لجناح التصليح العام في معمل تصليح المحركات النفاثة الجوية في التاجي، إلى جناح الإنتاج، حيث يتواجد فيه ضابطان برتبة جنرال (عميد)، كان جناح الإنتاج يتلكأ في عمله ويتعرض إلى عدة مشاكل تنظيمية وإدارية رغم تواجد العديد من الضباط، ولهذا اتخذ قائد المعمل قراره بإرسالي إليه بعد أن أصدر أمر عسكري رسمي يقضي بذلك.

لم يكن من الصعوبة عليّ إدارة جناح الإنتاج، إذ كنت على دراية كاملة بمكامن الخلل فيه، ولكن الصعوبة والحرج كانت تكمن في كيفية التعامل مع جنرالين رغم أنهما كانا متعاونان للغاية معي، في فترة قياسية استطعت إحداث تغيير جذري في العمل والتنظم والإدارة، كما أخذت على عاتقي أيضًا إدارة وتنظيم مطعم وسكن المراتب التي كانت بحال يرثى لها، لم تدم هذه النعمة سواء على مُنتسبي جناح الإنتاج أو مرتادي مطعم وسكن المراتب سوى أشهر معدودات حتى جاءت الحرب ودمر القصف المكثف، وللأسف الشديد كل شيء تمَّ تعميره وتحديثه.